

سنن الفضاء الصحراوي في تأثيث المشهد السردى الجزائري" 166

قراءة ابتدائية في العلاقة التداولية بين الصحراء والنص السردى

د. محمد بشير بويجرة

جامعة وهران

يبدو أن جمالية توظيف "المكان" و ما يحيط به من إضافات وما يتميز به من ميكانيزمات و بسبب عناية الأدباء بتوظيفه و لكثرة العناية به من طرف النقاد والمختصين في المداولات الأدبية المعاصرة جعلته ينال تسمية معاصرة هي "الفضاء". ومن هذه الزاوية، و وفق ما ظل يزخر به وطننا العزيز من اتساع لفضاء الصحراء ونظرا لما يتميز به من ثراء و تنوع و خصوصية، و تحت إلحاح ما أصبح يلاحظه القارئ من توظيف ملفت للنظر له في سردياتنا، فسأحاول في هذه الورقات أن أتقرب من ذلك التداخل الحاصل بين هذا الفضاء و بين مجموع الآليات المؤثرة للنص السردى الجزائرى قصد استبيان بعض خصائص السنن الموظفة لذلك في مجموعة من النصوص السردية مثل ؛ تميمون، تلك المحبة، اعترافات أسكرام، أوجاع الذاكرة، ملحمة راهبة في الصحراء، حائط رحمونة..

لكن قبل ذلك تجب الإشارة إلى أن المتعامل المعاصر مع منجزات المتون السردية يجد نفسه مضطرا إلى التعامل مع مصطلحين هما؛ المكان و الفضاء، كما يجد نفسه أمام رموز و إيقونات تشيد بكل منهما على حدة أو بهما معا، مما يرغمنا على القول بأن "المكان" هو ذلك الجزء من هذا العالم الذي يلحق الإنسان الرشقات الأولى لهوية وجوده، بالقدر الذي يجعله يشكل دائما نقطة المرجع = الرجوع = العودة = الهروب = عند الشعور بالخطر. و لعل هذه الميزة هي التي أغرت "باشلار" باعتماد "البيت" المكان الأول الذي تبنى فيه شخصية الإنسان و هويته.

أما "الفضاء" فيتشكل أساسا من ذلك المكان مضافا إليه عناصر تكميلية أخرى تساعد على بث حيوية أو خلق عناصر مفارقة من أجل تقوية حدس السمة التراجيدية لكيثونة ذلك الإنسان الذي يعيش في ذلك المكان. و يبدو أن تلك العناصر التكميلية، أو المضافة، هي التي

تصنع الحركية الوجودية في حياة الإنسان منذ قدر الله له أن يكون خليفته في "المكان العظيم = الحياة الدنيا" فيجب عليه أن يكد ويجتهد من أجل الحصول على نعيم "المكان النعيم = يوم الآخرة".

و وفق كل ما تقدم، و لاستبيان كثيرا من العناصر المثبتة لما قلت، يمكننا أن نقرأ قوة علاقة الإنسان بالمكان و كذا الوقوف على القوة التراجيدية في تلك العلاقة بينهما بداية من أبينا (آدم) عليه السلام الذي كرمه الله فعلمه الأسماء كلها ثم أنزله جنة الفردوس؛ المكان المبتغى لكل المبتغين في كل مبتغياتهم، ثم أضاف الله سبحانه إلى هذا "المكان" عناصر أضفت عليه سهو "فضاء"، و تتمثل تلك العناصر في "حواء" و "الشجرة" و "إبليس" و أشياء أخرى، بدون شك لم يستفيض نص القرآن الكريم في التفصيل فيها ابتغاء لبلاغة الإعجاز في الإيجاز، من أجل خلق حركية تناسب مقام (آدم) الإنسان و تختبره بغية إدراك الوجودية العامة في عالم الحياة الدنيوي. و يمكن أن تنسحب هذه المسألة على كثير من وقائع الوجود البشري مثل ما حدث مع "نوح" عليه السلام و "سفينته" و مع "إبراهيم" عليه السلام و "النار" و "الأصنام"، و مع ابنه "إسماعيل" ¹⁶⁷، و "مكة المكرمة" و مع "يوسف" عليه السلام و "السجن" و مع "موسى" عليه السلام و "جبل الطور" و مع "عيسى و أمه مريم" عليهما السلام و "المكان الذي انعزلت فيه مريم" و مع "الرسول" ص و "غار حراء".

أما إن حاولنا مناقشة هذه المسألة على المستوى الإنساني الحضاري الأوسع فلا نعدم، بدون شك، أدلة أو تثبيتا على كل ذلك، حيث يكفي أن نحوصل المسألة كلها في القول بأن: "...كل الحروب و التطاحنات الحاصلة بين الأمم و الشعوب عبر العصور كلها تعود إلى الرغبة في الحصول والاستيلاء على "أمكنة" لما تحتويه من مزايا و خيرات... تشكل الفضاء الأجل و الأرحب و الأنفع". ¹⁶⁸

و بما أن ما ذكرناه يؤكد على حساسية العلاقة بين "الإنسان" و بين "المكان" و أن تلك الحساسية اكتست طابعا تداوليا اكتسى صبغة الصراع؛ إما مع الإنسان نفسه لنفسه أو مع غيره من بني جنسه أو مع غيره من المخلوقات الطبيعية الأخرى، فإننا نلاحظ وجود علاقة بين

كل ذلك و بين النزعة السردية/الحكاية المتجذرة في كينونة الإنسان. ولعل ذلك ما أضفى مسحة الحميمية بين فن السرد(رواية و قصة قصيرة) و بين "المكان" الذي اتفق معظم المشتغلين على الحقول السردية باستبداله بمصطلح "الفضاء" لما يدخل عليه من إضافات تضيء عليه الطابع الحركي المغربي بمواصلة اللذة السردية؛ كتابة و قراءة لما يتميز به من قوة إثراء لجماليات النص الروائي. "169".

مع الإشارة إلى أن المشتغلين على الحقول السردية حددوا نوعين من الفضاء؛ فضاء وجودي معيشي "يتعامل على معطياته الإنسان، و فضاء نصي فني تخلقه اللغة داخل النص، كما أكدوا أن العلاقة بينهما تبني وفق آليات تخيلية تبغي خلق نوع من التبرير تارة، و تقصد إلى الإيهام بإمكانية وجود مواءمة ما بين المتخيل و المعاش تارة أخرى.

و وفق هذه الشبكة من التعالقات و المسارات نجد بعض نصوصنا السردية توظف بعض الأمكنة في الصحراء الجزائرية وفق صياغات و مصطلحات اسمية كسنن(إشارة=إيقونة) ثم تضيف عليها بعض السياقات و الأحداث و الوقائع التي تصبغ عليها حيوية و حركية تخيلية بغية تأنيث النص السرد و تجميله أو تحميله شغرات و رسائل معينة يقصدها السارد فتتحول نتيجة لذلك تلك "الأمكنة" إلى "فضاءات".

لكن معالجة ذلك و تحليله نقديا، يبدو لنا، يتسم بالتعقيد و التداخل بسبب مصطلح "الصحراء" الذي يجب أن تتوفر فيه خصوصيات الصحراء من رمال و تخيل و حيوانات و انبساط و غيرها من الدلائل المتعارف عليها في هذا الحقل، زيادة على تواجد هذا الفضاء و خصائصه في الجنوب الجزائري، هذا الجنوب الذي نجده في الجزائر مقسما إلى قسمين؛ قسم يشتمل على الخصائص الصحراوية التي ذكرت؛ وقسم آخر لا يتوفر على كل تلك الخصائص، بل يتوفر على خصائص و مميزات أخرى مثل منطقة "الطاسيلي" التي لا تتوفر فيها كل عناصر الفضاء الصحراوي التي تتوفر في منطقة "توات" أو "الساورة". مما يجعل الباحث محتارا بين مصطلحين؛ "الصحراء" أو "الجنوب" عند مدارسته لهذه المسألة النقدية التي تتطلب التدقيق في المصطلح.

و بما أننا سنستغني عن معالجة مصطلح "السرد"¹⁷⁰ و بكل ما يحيط به في هذه القراءة لطول مسار الفصل في مسائله المعقدة في مثل هذه المناسبات، فإنني أجد نفسي مضطرا للوقوف قليلا أمام مصطلح "الصحراء" باعتبارها فضاء أثث به كثير من الروائيين الجزائريين نصوصهم السردية، فأبدأ بالقول بأن؛ "الفضاء الصحراوي" باعتباره فضاء ثريا و ضاربا في أعماق وجودنا و مندمجا مع دهاليز عواطفنا ومشتهياتنا الغنية. مما يجعلني أقدم هذه الورقة وفق الخطاطة التالية :-

= الصحراء///المرجع//التصنيف/ الهوية:-

عند استذكار مخزنات الذاكرة الإنسانية عبر العصور و الأزمنة فس نجد لفضاء الصحراء و لخصائصه البيئية حضورا قويا في تفاعل الإنسان مع البدايات الأولى لوجوده و في صراعه مع الطبيعة حيث مثلت "الصحراء" دائما التيه و الضياع، كما نجد هذا الفضاء قد لعب دورا أساسيا في تصنيف البشرية و في تأصيل لأعراقها ولعشائرها، بنفس القدر الذي أعطيت لهما مكانة خاصة في آليات التعبير الفني أو في بلورة العلاقة الجدلية بين الإنسان وبين كل مكونات الصحراء. و لعل أبرز مشهد لهذه الجدلية ما نجده ميثوسا في التراثين اليهودي و المسيحي، و كذا ما نجده في القرآن الكريم من علاقة تأصيلية للعرق العربي بداية من سيدنا إسماعيل عليه السلام الذي حمله أبوه سيدنا إبراهيم إلى فضاء مكة القديم ثم تركه هناك مع أمه ففجر الله "عين زمزم" لطفًا بهما.

كما يلاحظ المتتبع لهذه المسألة أن كل هذه المدونات (مقدسة أو غير مقدسة) ربطت بين الفضاء الصحراوي و بين الجنس العربي و ما أبدع من شعر و من تراث إنساني له خصوصياته و تجلياته، ثم زادت من توثيق عرى الترابط هذه بعد ظهور الإسلام و ما أعقب ذلك من انتشار للحضارة العربية الإسلامية، مما اعتبر هذا التلاقح و التفاعل ظاهرة جلبت الكثير من العناية و الاهتمام من طرف المهتمين بالعلوم الإنسانية و الحضارية و الأدبية، و مما أكد، أيضا، على أن هذا الفضاء كان دوما مصاحبا لمسيرة جزء أساسي من بني البشر حين كان دافعا قويا لإبداعاتهم الفنية والاقتصادية والاجتماعية.

المدينة و البعض الآخر مما يختزنه ساكنوها و الجزء الآخر مما يبدعه مخيال الكاتب، أما القصد من كل ذلك فهو تلك الإضافة التي يقصدها هذا الكاتب خفية و ضمنيا فهي إضافة القارئ/المتلقي الذي يجد نفسه واقعا تحت تأثير فاتحة النص القائلة : "... يتساقط الليل مهيارا. فجأة يتسرب إلى داخل الحافلة بطريقة خافتة رويدا رويدا، هكذا كاللص يتلصص..."¹⁷³، و هي تلك الإضافة التي تبقى مؤجلة أبدا، بسبب تعددها مع تعدد القراء و المتلقين.

- كما نجد "تماسخت"¹⁷⁴ تقتنص اسما آخر لمدينة أخرى من عمق "توات" عمق الفضاء الصحراوي و هي ليست مدينة مثل "تيميمون" كما أنها ليست للسياحة فقط، و لكنها قرية نسجت حولها كثير من الحكايات و الأساطير عبر الأزمنة والأحقاب، غير أن قارئ هذه الرواية يجد فيها كثيرا من الإضافات التي اعتمدها كاتبها ليزيد من توهج تعالق العمق و الامتداد التاريخيين و الحضاريين و ما تكس فيهما من صراع مرير بين الإنسان في هذه المنطقة و بين الطبيعة القاسية من جهة وبينهما معا و بين العناصر الدخيلة عليهما من جهة أخرى.

- أما حين نعرج على "اعترافات اسكرام"¹⁷⁵ فسنعثر على عنوان مماثل يحيلنا على فضاء آخر في أقصى الجنوب الجزائري؛ فضاء لا يؤثثه ساق النخل و لا تتدحرج بين نتوآته حبيبات الرمل و لا تنخر جوفه مجاري الفقارات، بل فضاء مفتوحا على كل الإمكانيات؛ فضاء شاهد على أكبر جريمة ارتكبها الآخر(الفرنسي) ضد هوية (الأنا) و هي المتمثل في عملية التمسح التي قام بها (ميشال دي فوكو) في حق سكان المنطقة، مما دفع بأحد السكان الوطنية إلى تصفيته جسديا..

و مما لاشك فيه أن قارئ هذا النص سيكتشف عالما مليئا بالمعالم الأصيلة الممتدة عبر أغوار الأزمنة الماضية، كما أنه سيقع على إحالات متعددة و متنوعة المفاهيم تحت إغواءات مصطلح "اعترافات" التي باستطاعتها و حدها زرع الكثير من الممكنات الدلالية لدى القارئ/المتلقي. و خاصة حين نجد هذه الاعترافات تتلى من طرف شخص من فرنسا و السعودية و كوبا و إسبانيا و اليابان و بإيعاز من أحد المتطرفين المسيحيين الألمان...

- أما إذا عدنا إلى عتبة نص "ملحمة راهبة في الصحراء"¹⁷⁶ فسيغضي بنا التمعن فيها إلى خلق عالم مناقض، ربما، لما أوحى به العناوين السابقة من حيث الدلالات و الأبعاد بسبب المصطلحين التاليين؛ ملحمة و راهبة، كون المصطلح الأول جديد على المدونة المعرفية التي يشتغل عليها المبدع الصحراوي (الذي يفضل الشعر) على بقية الأجناس الأدبية، و أن المصطلح الثاني دخیل على المفاهيم العقائدية المتداولة في الصحراء.

و خلاصة للمسألة أرى بأن سنن الفضاء الصحراوي ومقصدية التأنيث به للمنظومة الروائية في الروائية قد تجلت، بصورة قوية و جلية، بداية من عتبة النص الروائي كما رأينا، مما أصبح يمكن القارئ من تمييز النص الروائي المتعلق مع الفضاء الصحراوي عن غيره من النصوص التي ليس لها علاقة به.

2 = سنن المكونات الطبيعية : -

أما إذا تجاوزنا العتبات النصية و غصنا في أعماق تلك المتون و في غيرها، كما رأينا في الفقرة السابقة من حيث اشتغال الروائي الجزائري على مسألة "العتبة النصية" و الاجتهاد في ربطها بالمرجعيات الصحراوية بواسطة اختياره عناوين لرواياته ذات دلالة و ذات أبعاد و إحياءات راقية من حيث الوقع الإيقاعي أو من حيث شحنات الانزياحات التي يتركها المصطلحات في ذائقة القارئ، فإن الروائي الجزائري، و هو يشتغل على الإحلاء من شأن صرح نصه الروائي قد وضع نصب عينيه (شعر بذلك أم لا) في اعتقادي شيئين هما؛ استغلال المكونات الطبيعية التي يتوفر عليها الفضاء الصحراوي من نخيل و رمال و فقارات و رياح و انبساط الأرض و اتساع الأفق و كذا امتداد الزمن (افتراضا)¹⁷⁷.

و لو حاولنا أن نشرح أبعاد و دلائل كل المكونات الطبيعية في الصحراء و التي أثبتت بصيغة أو غير مباشرة السرود الجزائرية لخرجنا بسفر كبير من الإفادات في هذا الشأن و لكن حسبنا الإشارة إلى البعض من ذلك الذي يلخصه الانطباع التالي "الإعجاب و التأثر بفضاء الصحراء" و الذي تعدد صيغه حيث مرة كالتالي "...و هكذا أستحوذ على الصحراء كلها بجفافها و خصوبتها، بصلافتها و لطافتها. ذلك أن الصحراء قارة بأكملها. قارة باردة حيث الشمس

حارة..¹⁷⁸، و مرة بالصيغة التالية: "...إن نزهة اليوم بالنسبة للضيوف ممتعة إذ بهرتهم المناظر الخلابة و غابة النخيل الشاسعة خاصة عند الإشراف عليها من أعالي القصور.."¹⁷⁹ أو بالصيغة القائلة بأن: "...سر استمرار حياة الإنسان على أديمها ماء "الفقارات" ينساب تحت الأرض في أنفاق مستقيمة تترايط بين الآبار، و تتدافع فيها المياه جارية، ثم تتدفق على سطح الأرض في سواق ينسج خريها لحن الحياة.."¹⁸⁰، كما قد يكون بالصيغة التالية: "...من كان يصدق بأن وراء تلك الكثبان الرملية هذا الاخضرار و هذه الواحة من النخيل..إنها الصحراء، غريبة و أسرارها كثيرة.."¹⁸¹ و غيرها من الصيغ المختلفة التي تقدم انطبعا عاما أو تأثرا بالفضاء الصحراوي. و مثل هذه الصيغ نجدها ماثلة في الغالبية الساحقة من هذه السرود رغبة من الروائي في إضفاء دلالات و إحياءات نفسية و جمالية على ذاثة القارئ/ المتلقي.

كما نجد صيغا أخرى لتقديم هذا الفضاء روائيا و هي تلك الصيغ التي تعتمد التدقيق و التفصيل في عملية النسيج السردى بين الفضاء الصحراوي الحقيقي و مكوناته الطبيعية و بين نزغ الخيال لدى الروائي، و يتحقق مثل ذلك عند الروائي "السائح الحبيب" خاصة عند ما يجعل "النخلة" ترقص طربة من نسيمات و عند ما يصر على أن "حبات الرمل" عند ما تدفعها الرياح و تنقلها من مكان إلى آخر إنما تفعل ذلك بخيلاء و أناقة...و كذا عند ما يجعل "الفقارة" تتباهى بمنحها الحياة للإنسان وللنبات و للحيوان في هذا الفضاء الذي يقدس فيه الماء.."¹⁸² و كذلك الأمر كان بالنسبة لحيوانات الصحراء من إبل و غزال و ثعالب و ذئاب التي وظفت بطرائق وأساليب فنية متميزة من روائي إلى آخر.

و إذا كانت المكونات الطبيعية للفضاء الصحراوي قد أبانت عن دور فعال وقوي في تأثيث المتن الروائي، فإن المكونات الملحقة بالطبيعية، و أقصد بها تلك المكونات التي ما كانت لتوجد لولا خصوصية الفضاء الصحراوي مثل "خيم الشعر" و "القصور" و "الألبسة" و "العادات و التقاليد" و غيرها من المكونات المصنوعة من منتجات الفضاء الصحراوي أو صنعت خصيصا لحاجة الإنسان إليها في هذا الفضاء. وأجد أن العناية بهذا المكون من الناحية الخارجية يتجلى في الفقرة التالية: "...الصحراء عبارة عن فضاء متكامل و متغير و متلون، على ما يبدو، لكن في

الواقع فالصحراء شيء آخر. فهي مجموعة من الأشكال والأحجام المشبعة بالخطوط المتشابهة و الصادرة كلها عن شبكة سميكة و سميكة، متشابهة و متراكبة و متقاطعة عناصرها كما تبدوا في الواحات الرهمة و الخصبة خصوبة لا مثيل لها في أي مكان آخر..¹⁸³ أما من جانب العناية بهذا المكون من الداخل فنجد في الفقرتين القائلتين : " .يدعونا الرجل للدخول إلى خيمته المزينة بالزرابي التي تشع منها ألوان حارة تنسيك برد الفصل..¹⁸⁴ " و " .تحت تلك الخيمة الدافئة شعرت كأنني تخلصت من جزء كبير من أوجاعي و استسلمت لروعة المكان و بساطته..¹⁸⁵ "

أما الفقرة القائلة : " .اسمع جيدا..واجه وقت الأصيل شمسا تفقد سوط الذهب، و تمتع بمغيبها الأسر في أفق طبيعة عذراء. و انحدر كما الوديان في طريق يلتهمك التراب و الطين..انحن طوعا أو كرها لولي صالح جذب إليه العرب و العجم، تلوح لك قبته المخصصة من بعيد، صامدة منذ خمسة قرون، لم تكثرث بالتبديع و التفسيق و التكفير...و أنت تسير اكتحل بواحة خضراء يحييك سعف نخلها تحية الكرم و عشق الضيافة..¹⁸⁶ " فإنها حقيقة تدعوا القارئ إلى محاولة جادة لبناء عالما تخييليا رائع الجمال و متناسق الأبعاد يضاهي الحقيقة الطبيعية. تلك المضاهاة التي ما كانت لتكون لولا تلك الإضافات(القائيات) التي يثتها لغة السارد بين جنبات النص وفي داخل مفاصله.

3 = سَنَ امتداد المكان :-

إذا كان "باشلار" قد اعتنى بالمكون البيتي(أقصد البيت) في تحليله لفعالية المكان و لأهميته كما حلل و أشار إلى تعالق واجهتي الداخل و الخارج فإن الروائي الجزائري، و هو يؤثث نصه بقضاء الصحراء، قد أضفى سمة خاصة و أولى أهمية خاصة للخارج(الامتداد خارج البيت) على حساب الداخل(البيت) حتى كادت الآثار المادية لذلك الداخل أن تنمحي كلية مما يضيف على القيمة التخيلية للقارئ/المتلقي أبعادا و مسارات متعددة و متباينة.

علما و أن للامتداد المكاني مميزات و خصائص ودلائل تجتمع حول انفتاح الأفق و حول الاستشعار بالأمن و بالأمان و حول زرع الإحساس بالحاجة إلى الكرم وإلى التآزر الاجتماعي

و العائلي و إلى غيرها من القيم و المعاني التي تشكل موردا أساسيا للبنى الاجتماعية و الفردية في هذا الفضاء القاسي نسبيا على الإنسان، و وفق ذلك أجد أن أفضل تجلية و أبلغ توظيف لتلك المعاني و الأبعاد و الدلالات التي كرسها هذا الفضاء أجده يتجسد في الفقرة القائلة : "... لا ننسى أن العين الصفراء تقع في منطقة تحيط بها الكثبان الرملية. كثبان نحتتها الرياح عبر آلاف السنين. من أعاليها تمتد الرؤية على لمح البصر. يمكن للإنسان أن يحلم و يتأمل لكن لا يكتب كثيرا لأن رمالها المحركة تثير أحيانا إلهاما أعرج من شأنه أن يوهم هواة الحس. وبعض لحظات النهار تنعكس أشعة الشمس على هذه الرمال فتوهم الرؤية حتى " يعتقد المشاهد أنه وجه الحقيقة من خلال السراب الذي يحجب الأرواح الضعيفة..." 187

4 = سنن الامتداد التاريخي :-

تكاد المدونات التاريخية و الحضارية العامة كلها تتفق على أن للفضاء الصحراوي امتداد تاريخي حضاري مهم، مما أهله لأن يحمل كثيرا من القيم و من الأبعاد الوجودية الإنسانية، ناهيك عن الكثير جدا من العبر و من الإحياءات و التأويلات التي تتلاءم و تنسجم مع ما يطمح إليه مخيال الروائي و التي نجدها، في كثير من الأحيان، تشبه نهم القارئ/ المتلقي. و لعل كلا من قرأ رواية جزائرية عن فضاء الصحراء سيلمس ذلك بوضوح و بدقة، لكنني أضيف بأن قارئ روايات الحبيب السائح الأخيرة و خاصة روايتي "تماسخت" و "تلك المحبة" سيلحظ ذلك بقوة، و ذلك عند ما جعل منطقة "توات" فضاء يتسع لكل الصراعات السياسية و الدينية والأيدولوجية عبر الأزمنة المختلفة بداية من الحروب و الصراعات التي عاشها الشرق الأوسط قديما مما شرع لهجرة اليهود إلى هذه المنطقة و مرورا على سقوط الأندلس التي كان من نتائجها هروب أفواج كثيرة جدا من اليهود إلى هذه المنطقة و كذلك تلك الحروب التي وقعت في المنطقة بين يهود المنطقة و بين المسلمين و في مقدمتهم عبد الكريم الغيللي، ناهيك عن الحركات التبشيرية في الفترة الاستعمارية الفرنسية، زيادة على بعض التجاذبات العقائدية التي تحدث بين الفينة و الأخرى بين الملة الدينية الواحدة أو الملل المختلفة، مما أدى إلى نسج نظام سردي راق يتقاطع فيه التاريخي الواقعي مع المتخيل و يتداخل فيه السياسي مع الديني..." 188

و لعل كل ذلك هو ما أوحى لأحد الباحثين بالقول عن منطقة الأهقار، ما يلي
..جبال الهقار التي احتضنت على مر التاريخ مملكة شعب شارك الصحراء آلامها وأحزانها،
بل استطاع بفضل إرادته القوية وتمسكه بالحياة، ترويض الطبيعة بقسوتها وجبروتها، و
يؤسس إحدى أعظم ممالك الصحراء، مملكة كيل أهقار..”¹⁸⁹، تلك الحضارة التي أعاب أحد
الباحثين بأنها كانت حضارة اللوحات والتشكيلات المرمرية ذات الصبغة المادية البدوية و
ليست روحية فنية، مما أحد الباحثين يرد عليه بالقول: “..و ما يؤخذ على الكاتب هنا، أنه
من خلال هذا التعميم قصر الفن على اللوحات والتشكيلات المرمرية، و لم يمعن النظر في باقي
الفنون الصحراوية الأخرى التي قد تكون على أهمية تفوق اللوحة الفنية، فبيت من الشعر أو
نغمة ناي فيهما من السحر الموسيقي والمعنى الدلالي ما يبعث عللا الاستمتاع ويترك آثارا
حسية قد لا تتوفر عليها اللوحة الفنية..”¹⁹⁰.

إن هذا الامتداد التاريخي للفضاء الصحراوي في الجزائر هو الذي أعجب به
الروائي الجزائري فأثث به جماليات نصه وجعله وسيلة مهمة وفعالة جدا لنقل ذائقة القارئ و
مخيلته إلى فجوات وجودية أخرى يشعر فيها بشيء أو بكثير من الاعتزاز، أو من أجل تسويق
غريزة التمعن والتدبر لديه، بنفس القوة التي يستشعره فيها بالمفاجأة والانبهار بما يقرأ. و لعل
ذلك ما دفع بالكثير من أهل الفضاء الصحراوي إلى الانقسام إلى فيئتين؛ فئة معجبة بما تقرأ عن
هذا الفضاء، و فئة أخرى رافضة لما تقرأه من هذا الفضاء في النصوص الروائية معتبرة ما تلبسه
من تخييل فيه الكثير من المغالات ومن الخروج عن حقيقة هذا الفضاء”¹⁹¹. وفي كلتا
الحالين أرى بأن هذا الاشتغال و هذا التأثيث الذي اعتمده الروائي حول الفضاء الصحراوي قد
أتى أكمله الأدبي و الفني و الجمالي حين نجده دائما يثير النقاش و الجدل و الإعجاب بمحبات
ذاكرتنا الوطنية.

و تحت هذه الإحالة أجد نص “اعترافات أسكرام” قد استند إلى ذلك الموروث
الحضاري لمنطقة “الهقار” فوظفه توظيفا جميلا رائعا في مجموعة من الإيقونات و فق سياقات
متعددة مثل مصطلح “اعترافات”¹⁹² “أسكرام” و اسم “تين آمود” و الميستر الفرنسي “شارل

دي فوكو" وغيرها من المعالم والأيقونات التي لا توجد إلا في هذه المنطقة. ولم يقتصر هذا التوظيف على سرد جماليات وحقائق هذه المعالم والإيقونات، بل أسبغ عليها مواد وصفات تخيلية أخرى بغية تأييد نصه الروائي.

و لعل في مقدمة هذه الإضافات هو جعل أحداث هذه الرواية تقع في نهاية 2039 و بداية 2040 فسمّاها "تام سيتي" و تخيل فيها صحفاً و أجهزة إعلامية قوية جداً تتبع كل أحداث المدينة عن قرب. و منها أيضاً اسم البطلة "تين آمود" المستوحى من البطلة و الزعيمة الترقية " تين هنان"، و منها أيضاً ذلك "الملجأ" للأيتام الذي تربت فيه "تين آمود" مع أخيها، و منها أيضاً تلك القائمة الطويلة من الأسماء العالمية التي سبقت وفق سياقات محددة و مبررة فنياً، و من هذه الإضافات أيضاً و التي أعطت قوة جمالية في نوعية تأييد هذا النص اللغة الترقية التي نجدها ماثلة بكثرة في الرواية؛ سواء في صيغ شعرية أو في صيغ نثرية مما أعطى للنص عمقا تداوليا في المسألة الحوارية و في قضايا التعبير عن القضايا الوجودية و الفكرية و الفلسفية التي يتمتع بها الإنسان الجزائري في هذا الفضاء.بالإضافة إلى شحذ الأحداث

و لعل الفقرة التالية تبرز الكثير من مزايا و خصائص هذه الصيغ، حيث نجد الألماني صاحب الفندق الذي نظمت فيه مسابقة الاعترافات يحاور نفسه : "...حانت ساعة الحقيقة. ما قلته قبل تسعة أشهر، سيبدأ اللحظة. إنها لحظة تاريخية في رحلة فندق أسكرام بالاس، و في رحلتي أنا هوسمان الألماني الذي جاء تام سيتي سائحا فبهرتة، و لم يكن أمامه خيار غير اللحاق بقلبه الذي استوطن الأسكرام مثلما فعل الأب دي فوكو قبل مائة و ثلاثين عاما، إنما الفرق بيني و بينه، أنه اختار أن يعيش على حليب الماعز، أما أنا فقد جلبت معي كل أجبان أوروبا...".¹⁹³.

5 = سنن التقاليد و الأعراف :-

إن سنن الفضاء الصحراوي و توظيفته في تأييد المشهد الروائي الجزائري كثيرة و متعددة و متنوعة بتعدد المناطق الصحراوية و غناها تراثيا و حضاريا، لذا يصعب حصرها في سنن معين و محدد، و لكننا نجدها في "الكرم" و في "التواضع" و في "التكافل الاجتماعي" و في

"الترحيب بالغريب" وفي "الالتفاف العائلي" وفي "الأعمال الجماعية = التوزيع" وفي "المحافظة على العقيدة الإسلامية" وفي كثير من التظاهرات الاجتماعية ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية، ولعل القارئ الكريم سيلحظ كل ذلك في السنن التالي: "...في منتصف النهار كنا بالقرب من بستان تركه صاحبه منذ حين، فطلب إليه السماح لنا بالاستراحة تحت ظلال نخيله.. أقبل بكل فرح" ردها مشيرا إلى أنه يسكن قريبا من المكان و طلب منا أن نكون ضيوفه أو على الأقل نقبل منه تناول شاي ووجدتني أتكلف كثيرا من الطيبة لأدفع عرض صاحبي وقلت له بأن معنا كل ما نحتاج إليه . غير أن هذا الإلحاح أدهش ضيوفي الذين لم يدركوا معناه فسألوني بعد انصرافه : ماذا دار بينكما؟ فأبلغتهم أن صاحب البستان يرغب في اقتسام غذاءه معنا ، فسألوني : هل لك به سابق مودة؟ فأجبت: أنا ألتقيه لأول مرة، فشارت دهشتهم لحسن الضيافة على هذه المودة العفوية لأجانب غرباء.. " 194.

الاحالات و الهوامش:

1. أقصد "بالسنن" هنا الإشارة أو الرمز أو الأيقونة التي تقوي الدلالة على فكرة أو على معنى. و قالت العرب: رأيت سنن فلان أي إبله.
2. الذي ربما نجد له توظيفاً في رواية "تلك المحبة" للحبيب السائح تحت اسم "إسماعيل الدرويش".
3. للمزيد من الاطلاع على هذه العلاقة فنياً في الجزائر يجب قراءة بحث "اماجستير" تحت عنوان "صورة الصحراء الجزائرية بين إتيان ديشيه وإيزابيل برهات" الذي تقدم به الطالب بلميلود عثمان (مخطوط) في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة وهران تحت إشراف الدكتور عبد الواحد شريف.
4. للمزيد من التفاصيل في هذه المسائل يمكن الرجوع إلى كتاب "شعرية الفضاء" المتخيل و الهوية في الرواية العربية" حسن نجمي، المركز الثقافي العربي، طبعة أولى 2000.
5. تفادياً للطول، و لأن المقام لايسمح بذلك، و لأنه يتوفر الآن مجموعة كبيرة جداً من المدونات النقدية التي عالجت هذا المصطلح منذ ميخائيل باختين حتى جيرار جينات و غيره من النقاد المعاصرين الذين أحوالوا على كل خصائصه و مميزاته.
6. العنوان في الرواية العربية، عبد المالك أشهبون، النايا للدراسات و النشر، محاكاة للدراسات و النشر و التوزيع، دمشق، طبعة أولى، 2011، ص 45.
7. رشيد بوجدر، منشورات ancp، الطبعة الثانية 2002.
8. م، س، ص 5.
9. السائح الحبيب،
10. عز الدين ميهوبي، منشورات البيت، 2008.
11. زاهد بوقلجة، ترجمة: بودواية بلحيا، مطبعة دحطب، 1992.
12. و أقصد بالافتراض هنا، ذلك التمدد في الزمن بسبب الفراغ الذي يعاني منه الفرد، و كذا بسبب عدم تكدر المهام و الانشغالات مثل ما يعيشه الإنسان في المدن الكبيرة، و كذا بسبب قوة العلاقات الإنسانية و الأسرية في الفضاء الصحراوي بخلاف الفضاءات الأخرى.
13. تيميمون، م، س، ص 34.
14. ملحمة راهبة في الصحراء، م، س، ص 51.
15. حائط رحومنة (مجموعة قصصية)، عبد الله كروم، مقالات للنشر و التوزيع و الإشهار، الطبعة الأولى، سنة 2011، ص 17.

16. أوجاع الذاكرة ، جميلة طلباوي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008، ص 199.
17. يمكن مراجعة كل ذلك بالتفصيل في كتاب " محنة التأويل، زخم المرجع، فتنة الوقع = قراءة في أوديسا الصحراء - تلك المحبة " محمد بشير بويجرة، دار القدس العربي، 2011.
18. تميمون، م ، س ، ص 42.
19. أوجاع الذاكرة ، جميلة طلباوي، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2008، ص 162.
20. م ، س ، ص 163.
21. حائط رحيمونة، م ، س ، ص 34، 35.
22. ملحمة راهبة في الصحراء، م ، س ، ص 116.
23. للمزيد من التفصيل يرجى قراءة كتاب " محنة التأويل زخم المرجع، فتنة الوقع، م ، س .
24. كيل أهقار: قصة سقوط آخر مملكة للبربر ، د. محمد اقامة ، دار هومة، الجزائر، 2009، ص 11.
25. الهقار أمجاد و أنجاد، عبد السلام بوشارب، نشر المتحف الوطني للمجاهد، 1995، ص 58.
26. ولا أريد أن أغادر هذه الفقرة دون القول بأن أصحاب هذا الرأي الأخير على حق لو كنا يصدد كتابة نص تاريخي أو اجتماعي أو عقائدي، بل نحن مع نص أدبي فني يعتمد بدرجة أولى على الترويض الخيالي من أجل التجميل والإيحاء بجمالية هذا الفضاء لكل قارئ له. طبعاً أقول ذلك إذا كان استعمال الخيال هنا يخدم البعد الفني الراقى الذي يحجب لقارئنا الوطن والهوية الوطنية و يبرز عبقرية الفرد الجزائري ، وليس الاستعمال الذي يمسح و يستغز مشاعر الوطنيين الأحرار.
27. هذا المصطلح ذي الأصول الكنسية القديمة الذي كان يتعاطاه المذنبون المسيحيون أمام القس في الكنيسة.
28. اعترافات أسكرام ، م ، س ، ص 106.
- ملحمة راهبة في الصحراء، م ، س ، ص 51.